أزمة الثقافة العربية المعاصرة

بقلم: د. ابراهيم احمد الانصارى
(جامعة قطر)

اصبح الحديث عن الثقافة العربية المعاصرة هذه الايام يمثل قلقا كبيرا ومجالا خصبا لكشف اسباب التاخر والتخلف الذى يعانيه الفرد العربى المسلم وبرنامج الامة ورسالة حضارتها.

لذا نجد ان مساحة كبيرة من الرياضة الذهنية والفعل العقلى لدى طبقة كبيرة من المثقفين واشباههم تدور حول هذه الاشكالية بتجاذب وتنافر وسعى دؤوب نحو وضع اليد على الاسباب والمسببات لتاخر الامة فى ترتيب اولوياتها ووضع برنامجها الحضارى الانسانى وثقافتها المتميزة موضع التنفيذ.

وفى هذا الاطار نجد ان ما يقع على المفكر والكاتب من مسئولية تفوق دونهم من الجمهور لما لدورهم من تاثير على الوضع الاجتماعى والسياسى والثقافى وتطوره فى بناء الاسس الحضارية لاية امة من الامم.

والابداعات المختلفة تكون تراثا مكتسبا او واقعا يتفاعل مع الامة او مستقبلا يخطط له تلتقى عند نقطة اساسية تشكل ثقافة هذه الامة وهويتها المتميزة ورصيدها الحقيقى فى مجابهة معوقات ترديها وتحديات تطلعها نحو المستقبل والاخطار التى تهدد وجودها.

وما يشكل ويبلور المفكر والكاتب والمثقف ينعكس بالتالى على الافراد والجماعات ويحدد نفسيتها ويرسم عقليتها ونهجها فى الحياة.

وعندما تخفق هذه الثقافة باخفاق المثقف وتراجع دوره ومسخ نتاجه تفقد الامة طريقها وتغرق فى متاهات التبعية والتخلف والضياع.

وللاسف فان الثقافة العربية المعاصرة تمثل عبئا حقيقيا على واقع الامة مزيدا فى ضياعها وازمتها الحالية لانها عجزت - اى الثقافة - فى ان تكون اداة تنوير وتقدم ومعول صحوة حقيقية تنتشل هذا الواقع الغارق فى ذاته والمرتد إلى ماضيه ارتداد خوف وتعزيه والبطىء فى نفض اثار الخنوع والتبعية عن الامة والتكامل مع ابناء لغتها ودينها لتقديم رسالة مستقبل مشرق طموح متجدد مع الحياة.

وما يؤكد ترددى هذه الثقافة هو انها منهجيا وآلية تعوقها تحديات فى بيئتها الداخلية متمثلة فى كونها لا تمتلك عمقا يربط المكتسبات الموروثة بالواقع ويحدد بالتالى مرتكزات الحاضر وبناء المستقبل.

ان الخطاب المعاصر لا يمثل الا شعارا مضللا وتشيد افتخار وعظمة تتغزل بالماضى وانجازاته ورموز حضارته دون ان يستطيع ان يحقق اية منجزات (وان ظهرت بين الفترة والاخرى جهود ذاتية فردية) مجسدة حقيقة ملموسة ترتكز على واقع له القدرة على التغيير والتعامل مع التحديات الخارجية والداخلية فى آن.

وليس غريبا اذن ان نرى ان الثقافة المعاصرة لم تستطع ولفترة طويلة وبعد ان اكتسبت الدول القُطرية استقلالها الظاهرى وبعد تجارب مواجهات عدة قوميا وعروبيا واشتراكيا.. وغيرها، ان تكسب المواجهة ضد الغزو والاختراق الخارجى المعادى للمشروع الوحدوى بجميع اتجاهاته وصنوفه الفكرية وتياراته المذهبية كما وانها اخطات مرارا وتخطىء مجددا فى تحديد العدو الحقيقى لهذه الامة ومصدر تهديدها المباشر ليس فقط للمشاريع المطروحة على الساحة الآن بل وجود الانسان العربى المسلم ذاته.

وهذا الاختراق الذى نراه ماثلا امامنا وعلى جميع الاصعدة وبدرجاته المختلفة وجد طريقه إلى عقليتنا وقرارنا السياسى والاقتصادى والمجتمعى... وغيرها، ليس لضعف اصالتنا او عدم تمسكنا بتراثنا وتقاليدنا وعاداتنا وانما جاء لقصر فهمنا للتحديات وعدم استيعابنا لحضارة الاخرين وفهم اسرار نجاحها ومرتكزات تقدمها ومواطن ضعفها.

اذا اننا ورغم المحاولات المتعددة للتقارب والتبنى والتفاعل والانفعال والصدو التصدى لم ناخذ او نستوعب من الحالة الاخرى ابدا تقنيتها وعقلانيتها كما يجب فجاءت المجابهة ضعيفة غير متكافئة الاطراف.

فلا غرابة اذن فى ان تتملكنا غربة شديدة ودونية وحقارة تجاه الاخرين ينعكس فى تشتت خطابنا السياسى والاقتصادى والثقافى... وغيرها، جعلنا اكثر الامم تمتلك شعارات جاهزة لجميع المناسبات واقلها تطبيقا لها.

وضعنا فى متاهات ومزالق الجدليات والفرعيات وتضييع الوقت بحيث اصبح الزمن عندنا عامل اعاقة لا عامل تسريع وتحفيز.

وللاسف الشديد بان الخطاب الذى يصلنا عبر الصحافة ويسمع ويشاهد على الاثير وما يعبر عنه فى الادبيات ويجادل فى اروقة المعاهد وعلى مقاعد الجامعات يمثل خطابا شعاريا كما اسلفنا متخبطا لم يحدد رؤيته الواضحة بعد، من حيث رفض او قبول الحضارات الجديدة ولم يحسم امره منها حسما نهائيا كما حسموا هم منذ قرون ونقلوا حضارة المسلمين الاوائل والعرب واضافوا عليها وابدعوا بعدها.

هذه نقطة:

والنقطة الاهم فى راينا تتمثل فى التحديات التى يواجهها الفكر العربى المعاصر وثقافته من الداخل اذ ان هناك تشتتا واضحا فى ذات الفرد والجماعة ومحاولة البحث عن صيغ يعبر الفكر عن نفسه وعن واقعه تعبيرا صادقا امينا يخرج من دائرة الفرضيات والجبر والخوف على لقمة العيش وحذر الدخول فى صدام مع مراكز القوة والقرار.

وربما كان لهذا الضياع اسبابه واهمها ان هذه الازمة التى تعانيها الثقافة هى موطنها ذاتنا التى اصبحت هى مصدر ومحور الخطاب بحيث تحولت الثقافة إلى عنصر فاعل فى التمزق والذى تعانيه مساحتنا الجغرافية من الماء إلى الماء.

ولعل هذا ناتج ايضا نتيجة غياب الحريات الديمقراطية وانتهاء الدور الشعبى الدائم للمثقفين واصحاب طيوف الاراء فى مواجهة السلبيات والانكسار والاستلاب وعدم وعينا وتروبضنا لانفسنا لتقبل وجود الاخر المختلف بدعم ترددى هذه الثقافة المطروحة المشتتة لانها لا تعكس نبض الشارع وارهاصاته وهمومه اليومية ولا تترجم واقعا معاصرا يتطلب التجديد والانفتاح.

واذا كانت الامة تعانى فى حاضرها ازمة فعلية فان المستقبل يجب ان يكون اكثر اشراقا وهذا يتطلب من الكاتب والمفكر وجموع المثقفين موقفا اخلاقيا متميزا يضعهم امام مسئولياتهم التاريخية لتحديد مواطن الضعف والانكسار فى عقلية هذه الامة لايجاد مخرج من هذا الترى بخلق مناخ صحى للتفكير والمناقشة فى اصول المشكلات الحقيقية لانها المدخل الامثل لتصحيح المسار ورؤية المستقبل بنور براق لا يعمى الابصار بل يهدى الجميع.